موسم الهجرة إلى إسطنبول

قالت صديقة لي، عندما قرأت مقالتي الأخيرة عن الشخصيّة الفهلويّة: "كفى انتقادًا، اكتب عن الناس الحلوة". ففكرت مليًّا بقولها، هل بالفعل كنت متشائمًا في كتاباتي وبعثت اليأس في نفوس القرّاء. حسنًا سأغيّر نهجي الذي اتبعته في هذه الفترة الصعبة، فترة الكورونا والحجر والتطعيمات والاغلاقات وسأكتب عن الشوق والحنين. الشوق والحنين إلى السفر والتنقل، فالحقائب جاهزة وما هي إلّا ساعات ونكون على متن الطائرة في حالة الإيذان بذلك.

وهنا ذهبت أفكاري بعيدًا وتذكرت رواية الأديب السوداني الشهير الطيب صالح الذي كتب روايته المشهورة "موسم الهجرة إلى الشمال " في أواسط الستينات من القرن الماضي، حيث كانت مجتمعات العالم العربي وافريقيا والعالم الثالث قد خرجت لتوّها من ربقة الاستعمار العكسري الطويل، مفعمة بالأمل في التخلص من آثاره المزمنة، أو من جرثومته –كما سمّاها في الرواية– التي تركها في نسيج هذه المجتمعات.

ها أنا عُدت إلى الكتابة عن الأدب وعن الاستعمار وعن المشاكل. دعوني أتوقف هُنا، فالطائرة بانتظارنا على أهبّة الاستعداد يحدونا الشوق والحنين إلى مدينتنا الجميلة التي افتقدناها خلال هذه الفترة العصيبة، مدينتنا إسطنبول الرائعة، مدينة كل المعلّمين والمعلّمات، التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من المنهاج التعليمي... أقصد السياحي لكل فرد منّا.

لم نكتف بزيارة واحدة لإسطنبول حتى نجد أنفسنا نعود مرةً أُخرى إليها.

مرة أُخرى في موسم الصيف القادم، بل في موسم الشتاء أيضًا رافضين أن ننسى عادات وتقاليد آبائنا، فنحن من سلالة قبيلة قريش التي اتخذت لها رحلة الشتاء والصيف، هاتان الرحلتان هما رحلة تجارة وميرة كانت قريش تجهزهما في هذين الفصلين كل سنة، أولاهما شتاء إلى بلاد اليمن يبلغون بها بلاد حمير، وأخراهما صيفًا إلى الشام يبلغون بها مدينة بصرى من بلاد الشام، وها نحن نسير على نهج آبائنا وأجدادنا وننحو منحاهم.

لقد زرت إسطنبول لأول مرة قبل عشرين عامًا، هذه المدينة الضخمة المفعمة بالحياة الصاخبة، هذه المدينة التاريخيّة العريقة. لم تكن إسطنبول مثلما هي في هذه الأيام ولكنها كانت وما زالت تجتذب إليها القادمين من كل أصقاع العالم. أعترف أنها لم تثر انطباعي سابقًا فقد كنت منبهرًا كأي شاب عربي بأضواء أوروبا الساطعة الغنيّة بكل شيء من ثقافة وجمال. لكنّي اكتشفت إسطنبول مثل غيري في السنوات الأخيرة.

فإسطنبول ليست فقط ميدان "تقسيم"، وشارع "استقلال" ومحلات "حافظ مصطفى" للحلويات، هي ليست أكلًا ومطاعم "بوراك ونصرت" فقط أو الفنادق الضخمة الكبيرة. إسطنبول ليست مجمّعات تجاريّة وتسوّقات. إسطنبول تاريخ وحضارة، قصور وقلاع، سلاطين وخلفاء. إسطنبول سليمان القانوني ومحمد الفاتح والسلطان اردوغان.

إسطنبول هي عارضة من عوارض التغيير الاجتماعي، الاقتصادي في حياتنا، هي مؤشر لما أصبحنا، هي ملجأُنا عندما نصاب بالملل واليأس، وعندما نرغب بالهروب من أحزاننا ومشاكلنا.

يُقال أنّ الأتراك لا يحبّون العرب وأنهم يتّهمونهم بالخيانة بعد أحداث الحرب العالميّة الأولى وثورة الشريف حسين وتآمره مع الإنجليز ضد السلطان العثماني، هناك شيءٌ من الصحة بذلك، وفي جدال لي مع سيدة تركيّة صديقة، ذكرت لي مساوئ العرب بالماضي والحاضر وعندما ذكّرتها أنني أيضًا عربي، صفعتني بقولها "أنت عربي أبيض" حيث سمعت هذا اللقب لأول مرة. ممّا جعلني أراجع أصولي الأيسلندية، ضاربًا عرض الحائط كل أنساب العرب الواردة بكتاب البلاذري حول أنساب القبائل العربية.

لكن لا ننسى أنّ تركيا اليوم هي أكبر ملجأ للّاجئين السياسيين الهاربين من ظلم الحكّام العرب، كما أنها احتوت أكثر من 2 مليون لاجئ سوري أغلقت الدول العربيّة أبوابها أمامهم. هذا الأمر يذكّرني بحادثة غيّرت حياتي كليًا.

"هذه الحادثة، غيرّت حياتي بصورة كبيرة جلست بأحد الأيام في ميدان تقسيم في العاصمة اسطنبول لآكل طبق من الكنافة اللذيذة التي ترافقها البوظة بطعم الفستق الحلبي (لا أدري لماذا لم ننتبه هنا لهذا المزيج الرائع) وكانت برفقتي زوجتي وابنتي. وعند أول لقمة لي وإذا بيد صغيرة تجذب أطراف ثوبي. نظرت إلى يميني وإذا بطفل صغير قصير القامة يشدّ بثوبي ويقول " عمي أنا جائع، أطعمني " صعقت لجملته، فهو لم يطلب النقود ولا يستجدي، مجرد يقول أنا جائع. تذكّرت أولادي وتذكّرت عطلتي وفندق الخمس نجوم الذي نقطنه. أمسكت به من ثوبه وأجلسته جنبي وناديت النادل وطلبت له الكنافة. استجاب النادل بامتعاض ولبّى الطلب على مضض، فهم كثر حسب رأيه ويضايقون الزبائن كما ادعى. لكنني لم آبه لاعتراضه او كلماته. " ما اسمك ؟! ومن أين ؟ ما عمرك ؟!" سألته تاركًا الكنافة والبوظة التي ذابت بفعل حر الصيف.

"انا اسمي احمد من الشام وعمري خمس سنوات". قالها وهو يأكل الكنافة بنهم وجوع. سألته زوجتي كما هي عادتنا "هل تريد ان تشرب شيئًا يا احمد"؟ حرّك رأسه رافضاً الفكرة كأنه يرفض ترك صحنه كي لا يأخذ النادل الذي يقف جانبًا وقد نفذ صبره، لكنه لا يجرؤ أن يفعل خوفًا من نظراتي المهدّدة. لم تتنازل زوجتي، كرّرت السؤال مرة اخرى " هل تريد الكولا أم تريد الماء" ألحّت بلطافة ورقّة. عندها رفع رأسه الي وقال: " عمو إذا بشرب بتعطيني ليرة" اه يا ويلّي. فجأة وبدون سابق إنذار شعرت بدموعي تنزلق من عيني بلا توقف، وجدت نفسي أبكي بكاءً شديدًا كما لم ابكِ طوال حياتي. تساقطت دموعي بكثافة وانضمت الي زوجتي وابنتي. لم تتوقف دموعنا رغم استغراب المارّة من الناس الذين نظروا إلينا باستغراب وبعضهم باستهجان. لم أرَ الناس ولَم أرَ النادل الذي اختفى عن ناظري بعد أن طلبت الماء لأحمد.

أنهى احمد طعامه وأعطيته عشر ليرات، اخذها مسرورًا وقال شكرًا واختفى بين الجموع في ميدان تقسيم.

لم نأكل الكنافة بل لملمنا حالنا وعدنا الى الفندق. ما زالت هذه الحادثة محفورة بذهني منذ سنوات وأخذت على نفسي عهدًا أن ارسم الابتسامة على وجه من استطعت من الأطفال."

أعرف أنني قد أفسدت عليكم رحلتكم لكن الطبع غلب التطبع.

دمتم بكل الخير

07\03\2021

أ.أيمن جبارة